جامعة الملك سعود
King Saud University

كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الندوة الدولية الثانية

قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة

٢٥-٢٧/٤/١٤٣٥هـ
٢٥-٢٧/٢/٢٠١٤م

المحتويات

البحث	الصفحة
كلمة رئيس الندوة د. خالد عايش الحافي	٣
كلمة رئيس التحرير أ. د. نورة الشملان	٥
خطاب التجديد في مجال إحياء التراث عوض بن حمد القوزي	٧
قراءة النقد الثقافي للتراث الأدبي: آفاق التلقي والتأويل أميرة بنت سلمان القفاري	١٧
قراءة حداثية للتراث وإشكالات المنهج دياب قديد	٤٥
من جهود المغاربة في قراءة النصوص الأدبية والنقدية التراثية: دراسة مصطلحية رشيد سلاوي	٦٧
إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين ودورها في تطوير قراءات الشعر القديم عبدالقادر الحسون	١٠١
رهانات تأويل الخطاب التراثي: تأصيل الكيان من المنظور الحواري فاتحة الطايب	١٢٧
معالم النظرية الإشارية في فكر الإمام ابن قيم الجوزية والدرس اللساني الحديث إدريس بن خويا وفاطمة برماتي	١٤١
التناول النصي في التراث النقدي العربي: دراسة في ضوء لسانيات النص رشيد عمران	١٥١
الشروط الأساسية في قراءة التراث اللغوي واللساني مجدي بن صوف	١٦٣
تفسير النص القرآني وتأويله بين المنهج السلفي والاتجاهات الحداثية محمود أبو المعاطي	١٨٥
الآليات التداولية لتحليل الخطاب من وجهتي نظر الأصوليين والتداوليين المحدثين مختار درقاوي	٢١٣
رثائية المعري الإنسانية: قراءة من منظور تناصي إبراهيم الدّهون	٢٥١
قراءة عبدالقاهر الجرجاني وتصوّره لفعل القراءة أبوعبدالسلام محمد الإدريسي	٢٦٧
قراءة القرطاجني في ضوء نظريات تحليل الخطاب الحديثة خليفة الميساوي	٢٨٣
قراءة التراث الأدبي: التراث السردي نموذجًا سعيد يقطين	٣١١
القراءة العاشقة أو إستراتيجية قراءة النص السردي الكلاسيكي: عبدالفتاح كيليطو نموذجًا عبدالرحمن بوعلي	٣٢٣

البحوث

المشرف العام

د. خالد بن عايش الحافي

رئيس التحرير

أ.د. نورة بنت صالح الشملان

مدير التحرير

د. يوسف بن محمود فجال

أعضاء اللجنة العلمية

أ. د. صالح بن زيّاد الغامدي
أ. د. إبراهيم بن سليمان الشمسان
أ. د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك
أ. د. مها بنت صالح الميمان
د. محمد بن لطفي الزليطي
د. بسمة بنت ناجي عروس

المدقق اللغوي

د. حسين المناصرة

البحث	الصفحة
أسلوب النداء في العربية دراسة في تداوليّة الخطاب أيمن محمود محمد إبراهيم	٣٤٣
القضايا التداولية للواسمات في الدرس اللساني العربي ومحطات التقاطع الإبستمولوجي في الدرس المعاصر الجمعي أبو العراس	٣٦٥
نحو قراءة إبستمولجية معرفية للتراث النحوي العربي عبدالرحمن بودرع	٣٧٩
اللسانيات والتراث النحوي: إشكالات منهجية وإبستمولوجية محمد بن صالح وحيدي	٤٠٩
الضرورة الشعرية بين نحو الجملة ولسانيات النص منال نجار	٤٢٥
السيميائيات التأويلية إبدال نقدي لقراءة التراث وترهينه عبدالله بريمي	٤٥١
سيميائيات التلفّظ وتأويل الخطاب: بائية علقمة الفحل أنموذجًا عبدالفتاح يوسف	٤٧١
التحليل السيميائي للنصوص التراثية: مقاربة لتجربة عبدالفتاح كيليطو عبداللطيف محفوظ	٥١٧
آليات تحليل النص التراثي في ضوء المناهج المعاصرة السيميائية / التداولية نادية لقجع جلول	٥٣٣
قضايا تداولية في الخطاب القصصي القرآني: قصة سيدنا يوسف أنموذجًا إيمان جربوعة	٥٥٧
المعجمية الحديثة وإعادة قرءة التراث اللغوي العربي عبدالرحمان أحمد يجيوي	٥٧٩
المهمل في المعجم العربي وسبُل استثماره في وضع المصطلح عبدالقادر بن ميلود سلامي وسليمة حبيب بحياوي	٦١٣
نحو تسطيع «المرايا المقعرة» قراءة نقدية في بعض القضايا الواردة في كتاب المرايا المقعرة حميدي بن يوسف عمر	٦٣١
وقائع الخطاب في كتاب مجالس العلماء للزجاجي وسمية عبدالمحسن المنصور	٦٥١
تأصيل التراث في ظل الأدب المقارن بشير أحمد يوسف عمر	٧٠١
ماهية التراث ضمن المحمولات الأيديولوجية الحديثة عند الشاعر العربي المعاصر حبيب بُوهرور	٧٢٥
القراءة الحداثية للتراث: موقع التراث في بيانات الحداثيين العرب عبدالله العشي	٧٤٥
النقد الحداثي ورهاناته بين نصوصيّة عربية وإجرائية غربيّة لعموري زاوي	٧٦٥
المصطلح النقدي Hermenetics بين خلفية الفكر الغربي وواقع التصور العربي مختار عبدالقادر لزعر	٧٨٥

العنوان

ص.ب : ٢٤٥٦
الرياض: ١١٤٥١
هـــاتف: ٠١١٤٦٧٥١٠١
فـــاكس: ٠١١٤٦٧٥٠٩٤

البريد الإلكتروني

nadwa.arabic@ksu.ed.sa

التناول النصي في التراث النقدي العربي
دراسة في ضوء لسانيات النص

رشيد رمضان عمران

الأستاذ المشارك في لسانيات النص، جامعة بشار، الجزائر

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة فهم آليات و وسائل التماسك النصي كما جاءت في نظرية الإعجاز عند الباقلاني، وذلك لفهم هذا التراث الضخم الذي مازال قادرا على العطاء والتجدد، بحيث يمكن أن تتفوق بعض الآليات و الوسائل التماسكية التي وردت في نظرية الإعجاز على ما قدمته أحدث النظريات اللسانية، وبالذات اللسانيات النصية، وبالتالي فإن هذا التراث يستحق القراءة و إعادة القراءة لفهمه ووضعه في إطاره الصحيح، كما تسعى هذه الأطروحة لتقديم رؤية التماسك النصي عند عالم فذ حاول الدفاع عن القرآن الكريم بكل ما أوتي من وسائل، فقد استطاع أن يثبت بأن التماسك النصي يشكل وجها من وجوه الإعجاز القرآني.

الكلمات المفتاحية:

النص- التناصية- التماسك النصي- التعالق النصي- الإعجاز.

مدخل

شكلت لسانيات النص منذ نهاية الستينات منعرجًا حاسمًا في تاريخ اللسانيات التقليدية بكل توجهاتها: البنيوية، والتوزيعية، والسلوكية، والوظيفية، والتوليدية التحويلية، ولا يعني التجاوز هنا القطيعة العلمية بين تلك

التوجهات واللسانيات النصية، وإنما تطور العلوم يفترض استفادة اللسانيات النصية من كل معطيات اللسانيات الجملية، وتجاوز قصور هذه الأخيرة من حيث أن الجملة لم تعد كافية لكل مسائل الوصف اللغوي من حيث الدلالة والتداول والسياق الثقافي العام، وكل ذلك له دور حاسم في التواصل اللغوي، وقد أخرجت لسانيات النصية علوم اللسان من "مأزق الدراسات البنيوية التركيبة التي عجزت في الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية".

واتخذت اللسانيات النصية هدفًا رئيسًا ترمي الوصول إليه ؛ وهو الوصف والتحليل والدراسة اللغوية للأبنية النصية، وتحليل المظاهر المتنوعة لأشكال التواصل النصي.

ذلك أن النص ليس بناءً لغويًا فحسب وإنما يدخل ذلك البناء في سياق تفاعلي بين مخاطِب ومخاطَب، تفاعل لا يتم بجمل متراكم بعضها فوق بعض كيفما اتفق غير متماسكة ولا يربطها رابط، ولا تدرك النصوص بوصفها أفعال تواصل فردية بل بوصفها نتائج متجاوزة الإفراد، ومن هذا المنطلق يجب أن يتخذ التحليل اللغوي النص مبتغاه النهائي في الدراسة، و هذا ما دعا إليه (فاينريش ١٩٢٧م)، و (ب.هارتمان ١٩٦٨م).

ويُعَدّ الأمريكي (هاريس ١٩٥٢م) أول من استخدم التحليل النصي الشامل من خلال دراسته الموسومة بـ(تحليل الخطاب Discours Analysis) ، وهو بحث قيم بدأت معه بوادر الاهتمام بالنص، والنص وسياقه الاجتماعي، وقدم في بحثه أول تحليل منهجي لنصوص بعينها.

وقد اهتم هاريس بتوزيع العناصر اللغوية في النصوص المطولة ، والروابط بين النص وسياقه الاجتماعي.

ولا يعتبر هاريس أول لساني حديث يعتبر الخطاب موضوعًا شرعيًا للدرس اللساني فحسب ؛ بل إنه تجاوز ذلك إلى تحقيق قضاياه التي ضمنها برامجه بتقديم أول تحليل منهجي لنصوص بعينها، وقد رأى هاريس ضرورة تجاوز (نحو الجملة) ، ذلك أن الدراسات اللسانية وقعت في مشكلتين لابد من تجاوزهما وهما:

"الأولى:

قصر الدراسة على الجمل ، والعلاقات فيما بين أجزاء الجملة الواحدة.

الثانية:

الفصل بين اللغة Languge والموقف الاجتماعي Social Situation ، مما يحول دون الفهم الصحيح، فجملة مثل (كيف حالك) قد تعطي في سياقها معنى التحية، أكثر منها السؤال عن الصحة، ومن ثَمّ اعتمد في منهجه في تحليل الخطاب على ركيزتين:

- العلاقات التوزيعية بين الجمل.

- الربط بين اللغة و الموقف الاجتماعي.

بعد ذلك بدأ بعض اللسانيين ينتبهون إلى المشكلتين اللتين أشار إليهما هاريس، وإلى أهمية تجاوز الدراسة اللغوية مستوى الجملة إلى مستوى النص ، والربط بين اللغة و الموقف الاجتماعي مُشَكِّلين بذلك اتجاهًا لسانيًا، أخذت ملامحه ومناهجه وإجراءاته في التبلور منذ منتصف الستينات تقريبًا .

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة فهم آليات ووسائل التماسك النصي كما جاءت في نظرية الإعجاز عند الباقلاني، وذلك لفهم هذا التراث الضخم الذي مازال قادرًا على العطاء و التجدد ، بحيث يمكن أن تتفوق بعض الآليات و الوسائل التماسكية التي وردت في نظرية الإعجاز على ما قدمته أحدث النظريات اللسانية، وبالذات اللسانيات النصية، وبالتالي فإن هذا التراث يستحق القراءة و إعادة القراءة لفهمه ووضعه في إطاره الصحيح، كما تسعى هذه الأطروحة لتقديم رؤية التماسك النصي عند عالم فذ حاول الدفاع عن القرآن الكريم بكل ما أوتي من وسائل، فقد استطاع أن يثبت بأن التماسك النصي يشكل وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني.

وإن تزايد الاهتمام باللسانيات النصية في الآونة الأخيرة يغري بتناول ما قدمه التراث العربي والإسلامي في هذا المضمار ، ذلك أن الحضور الفاعل والقوي للنظريات اللسانية الغربية في حاضرنا يفترض عدم تجاوزه أو القفز عليه، بل يفترض الحوار والتثاقف الهادف، بحيث لا يأخذ كل ما استجد من نظريات كحاطب ليل، ولا يلغي الخصوصية الثقافية والحضارية العربية والإسلامية، وتعتبر النظرية اللسانية النصية اتجاهًا لسانيًا جديدًا فرض نفسه بقوة في الآونة الأخيرة بحيث انتقل باللسانيات من حيز الجملة إلى فضاء النص، فقد تطورت اللسانيات النصية في السبعينات على يد VAN DIJK الذي يعد مؤسس علم النص؛ والذي أصبح حقيقة راسخة على يد الأمريكي BEAUGRANDE في الثمانينات ؛ حيث لم تعد الجملة كافية لكل مسائل الوصف اللغوي.

و قد تناولت في هذه الدراسة الملامح النصية من خلال نظرية الإعجاز للباقلاني ، ويأتي في مقدمة تلك الملامح قضية التماسك النصي التي تشكل قطب الرحى في النظرية اللسانية النصية، واخترت في هذا المجال الباقلاني لما له من أهمية في تاريخ الإعجاز القرآني ، باعتباره أول من قام بتحليل سورة كاملة ونص شعري كامل.

جوه النظم عند الباقلاني:

في البداية تجدر الإشارة إلى أن بذور نظرية النظم، ودور الوحدة الكلية في الحكم النقدي قد ظهرت قبل الباقلاني في العديد من الكتب العربية النقدية القديمة؛ فالتوحيدي ـ على سبيل المثال- يرى أن التفاضل في النظم

والتأليف أساس في الحكم على العمل الفني نثرًا كان أو شعرًا ؛ ذلك أن "التفاضل الواقع في النظم والنثر إنما هو في هذا المتركب الذي يسمى تأليفًا ورصفًا"[١].

وقد اعتبر عمر بن لجأ شعره أفضل من شعر غيره معللاً ذلك على أساس النظم ؛ "قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذاك ؟؟ قال: أنا أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه"[٢].

إذن فقد كان يعاب الشعر لضعف"التماسك"بين أبياته أو " الحبك " بالمصطلح القديم.

كما يذكر الجاحظ إذ ذكرت " نظرية النظم " في طورها الجنيني، فـ "المعاني المطروحة" أقرب مصطلح يفسر نظرية النظم، وأفضل تعبير قام للدفاع عن النظم الذي اختص به اللسان العربي في وجه الغزو اليوناني، فمدار الأمر في الشعر على " إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك"[٣].

ولعلّ مصطلح " السبك " يؤشر في هذا النص القصير إلى دور "التماسك" في البناء الفني للقصيدة، وبذلك يصبح "معيارًا" حقيقيًا، ومقومًا أساسيًا من مقومات العمل الفني ؛ ارتقى "النص" في تماسك أجزائه كلما ارتقى تميّزًا وتفردًا إلى أن يبلغ درجة "الإعجاز" في اللحاق به، كما في النص القرآني الخالد، وإثبات النبوة لمحمدصلى الله عليه وسلم في رأي الجاحظ لا تكون إلا من خلال إثبات الإعجاز للقرآن الكريم، لذلك وجد الجاحظ أن النظم أفضل طريقًا للانتصار على الطاعنين في نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)[٤].

إن هذه الإشارات المبكرة في تاريخ النقد العربي لا ينبغي أن تصدنا من تقرير ؛ أن تلك الإشارات كانت مزدهرة متطورة في شقّها النظري، بينما كانت ضامرة في شقّها الإجرائي التطبيقي[٥].

فقد بقيت الدراسات النقدية تعتمد البيت من الشعر، أو الجملة من النثر دون الولوج إلى عالم النص هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم ترق تلك الإشارات إلى تشكيل تيار قوي في النقد العربي لتؤسس نظرية بارزة المعالم، بل بقيت مشروعًا في رؤوس أفراد شهد لهم تاريخنا النقدي بالتميز والريادة، وقد وسم أحد الدارسين تلك التطبيقات التي تعتمد البيت أو الجملة بالقراءة المغرضة حيث" اعتمدت سبيل البيت، وراحت تتقفى ما يخدم

(١) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، ط٢، ١٩٥٣م، القاهرة، ٦٩/٢.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، ط٢ ،١٩٨٩م، بيروت، لبنان، ٩٠/١ .

(٣) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٩٦٩م، بيروت، لبنان، ٣/ ١٣١- ١٣٢.

(٤) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٩٨.

(٥) توفيق الزيدي، مفهوم الأدبية في التراث النقدي، دار سراس للنشر، ١٩٨٥م، تونس، ص١٥٤.

غرضها، غاضّة الطرف عن القصيدة كلّها فهي تتذرع بالشرح والتفسير بل تتوقف عند اللفظ، والمعنى المفرد، والإعراب الشاذ"[١].

ولكن وعلى الرغم من كل هذا لا ينبغي إلغاء النظرة الكلية، والبناء التكاملي عن تراثنا النقدي نهائيًا، فلا ينفي احتفاء قدماء النقاد العرب بالبيت الشعري أو الجملة في النثر إهمالهم تماما للوحدة الكلية في العمل الفني، وقد قدّم الأستاذ توفيق الزيدي بعض التبريرات التي جعلت النقد القديم يقف عند حدود الجملة أو البيت، نقدم أهمها فيما يلي:

- لقد كانت تلك النظرة التجزيئية تعتبر طبيعية إذا ما وضعت في سياقها التاريخي؛ ذلك أن الحضارة العربية اتّسمت بتراثها المنطوق؛ ومن قوانين التراث المنطوق أن يوزع النص إلى وحدات سمعية على مستوى القصيدة وعلى مستوى البيت[٢].
- لقد فرضت روح الاختيار للنصوص - التي طبعت مؤلفات اللغويين والبلاغيين - التجزيء والتقطيع للنص عن سياقه العام[٣].
- لقد كان الناقد قديمًا لغويًا كان أم بلاغيًا، همّه البحث عن المقاطع المنتخبة للاستشهاد وكفى، ولذلك فإن الوظيفة التعليمية للبلاغي أو اللغوي سمتها الأساسية عزل وحدات نصية صغيرة من سياقها العام.

لقد استثنى كثير من النقاد المحدثين محاولة الباقلاني في تاريخ النقد العربي من التناول الجزئي، والوقوف عند البيت أو الجملة أو الآية كحد أقصى في التحليل اللغوي؛ حتى اعتبر علامة مميزة وقتها، يرى توفيق الزيدي أن ما قدّمه الباقلاني قمين بالنظر "و تجدر الملاحظة أننا عثرنا عند الباقلاني في (إعجاز القرآن) على محاولة فريدة من نوعها وطريقة في نفس الوقت تمثلت في دراسته لجزء كبير من قصيدتين إحداها معلقة امرئ القيس والثانية للبحتري ووجه الطرافة أن المؤلف عمد أن ينظر في القصيدتين نظرة تكاد تكون شمولية من ناحية الجودة و القبح مركزًا خاصة على طريق البناء، فهو إذن عمل بعيد عن (الشرح) المألوف لأن الروح التي أملته هي روح الشمول، لا سيما وأن ذلك يتنزل ضمن قضية إعجاز القرآن وخاصة فيما يتعلق بنظمه"[٤].

---

(١) حبيب مونسي، القراءة والحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م، دمشق، سورية، ص٣٥.

(٢) توفيق الزيدي، المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٣) المرجع نفسه، ص١٥٧.

(٤) المرجع نفسه، ص١٥٩.

يثبت هذا النص الإدراك العميق الذي ميّز دراسة الباقلاني ؛ وهو في طريقه إلى الإعجاز القرآني مستندًا على نظريته في النظم ؛ التي مسّ من خلالها جانبًا ظل متخفيًا في دراساتنا النقدية ؛ إنه الأسلوب والوحدة في العمل الفني[١].

لقد تجلت الوحدة النصية جيدًا في تحليل الباقلاني لقصيدتي البحتري وامرىء القيس وسورتي غافر والإسراء ؛ هذا التحليل الذي شكّل سابقة أصيلة في التاريخ النقدي العربي، فإذا كان غنيمي هلال يرى أن " من نقاد العرب المتأخرين من ردّد فكرة الوحدة العضوية متأثرًا بأرسطو"[٢].

إن الباقلاني من خلال النماذج التطبيقية التي حلّلها يعتبر من أوائل من عنوا بتبيين التماسك والترابط في السور القرآنية التي حلّلها، " ولقد استطاع الباقلاني أن يحدّ النص بحدود فنية تأخذ نموذج النص المعجز، وهو نص أحكم نظمه بعناية فائقة واختيرت ألفاظه اختيارًا يضمن له التميز والتفرد،وانطلاقًا من هذا المستوى راح يشير بين الحين والآخر إلى ما يمثل الحسن في كلام العرب، و يبين كيف أنه مدرك وممكن الإتيان بخلاف النص القرآني الذي لا يدرك إلا في الإفهام، ولا يمكن الوصول إليه والإتيان بمثله"[٣].

وبناء على ذلك يمكن الوصول إلى أن الباقلاني وهو في صدد بحثه قضية الإعجاز كان من الذين تنبهوا إلى قيمة تماسك أجزاء النص ؛ فقد كان مدركًا ذلك تمامًا ؛ حيث يظهر في أعماله استقصاء النص برمته، ولا نريد هنا مناقشة هل وُفّق الباقلاني في أحكامه، وإنما يهمّنا هو وعي الباقلاني المبكر في تطبيقاته لضرورة التناول الشامل للنص.

ومن هنا يمكن أن نستثني تطبيقات الباقلاني من عبارة شوقي ضيف التي يصف فيها النقد العربي بأنه: "كان في جملته نقدًا عمليًا يتصل بالجزئيات ولا ينفك عنها إلا قليلا، فقد كان محوره غالبًا البيت والعبارة ، ولم ينظروا في الأدب عامة،فقد كان شغلهم النظرة الـجزئية بحـيث يمكن أن نـقول إن نشاطهم النقدي كان أقـرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص"[٤].

ولعل شوقي ضيف نفسه عاد لتقييد عبارته من التعميم بقوله: "ولا ننكر أنهم تركوا كثيرا من الأحكام العامة إلاّ أنها تجري على ألسنتهم في جمل مركّزة وقلّما حللوها"[٥].

(١) عبد الرؤوف مخلوف، الباقلاني و كتابه إعجاز القرآن، ص ٥٢٣ .

(٢) غنيمي هلال، المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٨م، مصر، ص٢٤٣.

(٣) محمد تحريشي، النقد الأدبي في دراسات الإعجاز القرآني، مخطوط، ٢٠٠٠م، جامعة وهران، ص١٧٧.

(٤) شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٣١.

(٥) المرجع نفسه، ص٣٢.

لقد كانت الرؤية الكلية والشاملة للنص ماثلة أمام الباقلاني في النصوص التي حلّلها ، و كان البحث عن التماسك أساس تلك الرؤية التي تبغي تتبع الترابط بين أجـزاء الـنص، ففي تحليله لسورة النمل يقول: "بدأ بذكر السورة، إلى أن بيّن أن القرآن مـتن عنـده فـقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ [1]، ثم وصل بذلك قصة موسى (عليه السلام) وأنّه رأى نارًا فقال لأهله امكثوا ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [2] ثم قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [3]، فانظر إلى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مـع الكـلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدّمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية وما دلّ به عليها من قلب العصا حيّة، وجعلها دليلًا يدلّه عليه ومعجزة تهديه إليه"[4].

لقد انطلق الباقلاني في بحثه قضية الإعجاز في القرآن الكريم من نظرية النظم ؛ النظم القرآني المتميز الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله ؛ وتأسيسًا على هذه الفكرة راح الباقلاني يقارن بين نظم بشري ونظم قرآني مقدّس، ومن خلال تلك المعالجة بما لها وما عليها مسّ الباقلاني فكرة جوهرية في النقد، وهي فكرة التماسك والصياغة الكلية في الكلام الفني، الذي يزداد تميزًا و تفردًا كلما تماسكت أجزاؤه حتى يبدو في صورة متناسقة متناغمة، حتى يبلغ الذروة في التماسك التي لن يصلها بشر، ولن تتطاول إليها الأعناق[5].

التماسك النصي في تطبيقات الباقلاني:

وهو في صدد إثبات الإعجاز للقرآن الكريم على طريق النظم، يبدو أن فكرة عدم التفاوت في النص القرآني على اتساعه ؛ تشكّل ركنا أساسيًا في نظرية النظم عند الباقلاني، ذلك "أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها"[6].

وليثبت هذا الكلام لجأ الباقلاني إلى كلام بشري ؛ بشري راق صادر من قرائح ناضجة مشهود لها بالريادة والتفرد والتميز مقارنًا ذلك الكلام الراقي بالبلاغة القرآنية ؛ ليثبت أن "ليس للعرب كلام مشتمل على هذه

(١) سورة النمل، آية ٠٦.
(٢) سورة النمل، آية ٠٧.
(٣) سورة النمل، آية ٠٨.
(٤) الباقلاني، المرجع السابق، ص ٢٣٠- ٢٣١.
(٥) شوقي ضيف، في النقد الأدبي، ص٣٠.
(٦) المرجع نفسه، ص٨٧.

الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر"[1].

لقد كانت الدراسات الإعجازية والنقدية قبل الباقلاني تعتمد البيت في الشعر، أو الجملة في النثر أو الآية في الشعر؛ وتوقف النقاد عند ذلك كحد أقصى يصله التحليل؛ ممّا جعل كثيرًا من الأحكام قاصرًا عن وصف العمل الفني وصفًا دقيقًا، إلى أن دخل الباقلاني حقل الدراسة النقدية التي وجد نفسه مضطرًا أن يتوقف عندها ليثبت إعجازًا للقرآن الكريم من طريقة العرب في النظم "فردّد القول بأن قضية الإعجاز لا يتوصل إليها عن طريق البديع والبلاغة وحدها، وأخذ يبحث عن سر الإعجاز حقيقة، فابتدأ الطريق من أوله بعد أن شك في قدرة البديع وعلى هدايته، فوجد أن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة، ولذلك لجأ الباقلاني إلى سور القرآن، يبحث في السورة جملة عن الوحدة الموضوعية الفنية فيها مؤكدًا هذه الوحدة التي تربط بين آياته في نظام جميل دقيق"[2].

لقد كانت الصياغة الكلية للنص ماثلة أمام الباقلاني وهو يعرض نظريته في النظم؛ وأيضا وهو يطبق نظريته على الشعر والقرآن الكريم، وقد استدعى منه البحث عن البناء العام للنص؛ البحث عن كيفية تماسك الوحدات النصية الصغرى التي تكوّن النص الكبير يقول: "وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حدّ واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدّ واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه ممّا لا يقدر عليه البشر؛ لأن الذي يقدرون عليه قد بيّنا فيه التفاوت الكثير؛ عند التكرار؛ وعند تَبَايُنِ الوجوه واختلاف الأسباب "[3].

إن الباقلاني وفي سبيل الوصول إلى الوحدة النصية الشاملة؛ ينطلق من البحث عن علاقات التماسك بين الوحدات النصية الصغرى؛ يبدأ من الآية الأولى في السورة باحثًا عن سر تجاورها للآية الثانية، وهكذا حتى يصير إلى الآية الأخيرة من السورة وهكذا يفعل مع القصيدة؛ لكنه مع هذه الأخيرة متعسف باحث عن التماسك الواهي أو المنعدم فهو –مثلاً– في تحليله للامية البحتري في قوله:

(١) المرجع نفسه، ص٨٨.

(٢) أحمد سيد محمد عمار، نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، دار الفكر، ط ١، ١٩٩٨م، دمشق، ص٢١٨.

(٣) الباقلاني، المرجع السابق، ص٨٨- ٨٩.

وأعز في الزمن البهيم محجل قد رحت منه على أغر محجل

كالهيكـــــل المبني إلا انـــه في الحسن جاء كصورة في هيكل

يقول معلقا على البيتين: "فالبيت الأول لم يتفق له خروج حسن، بل هو مقطوع عما سبق من الكلام، وعامة خروجه - البحتري- نحو هذا، وهو غير بارع في هذا الباب، وهذا مذموم معيب فيه"(١).

ووقف عند بيتين آخرين للبحتري:

مضر الجزيرة كلها وربيعة الـ خابور توعدني وأزد الموصل

قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخيك من أدد أبيك بمنصل

فقال: "والبيت الثاني قد تعذّر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف"(٢).

ويعلق على البيتين الآتيين:

عال على نظر الحسود كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبـــلِ

أوَ ما رأيت المجد ألقَى رحـــله في آل طلحة ثم لم يتحـوّل

بقوله: "والبيت الثاني أجنبي عنه، بعيد منه...والبيتان أجنبيان من كلامه، غريبان في قصيدته"(٣).

لقد كان الباقلاني واعيا بدور الوحدة الكلية للنص التي تظهر بإبراز التماسك الشديد بين أجزاء النص، إلى الحد الذي يبدو فيه التماسك النصي في القرآن الكريم وجهًا إعجازيًا مستقلاً بذاته من خلال تقريراته العامة التي كانت في حاجة إلى وصف دقيق يضع رؤية الباقلاني للتماسك النصي في نظرية واضحة المعالم والحدود.

لقد وصف بعض النقاد الباقلاني في تحليلاته لنصي امرىء القيس والبحتري بالتعسف الشديد في رائعتين من روائع الشعر العربي ويبدو ذلك ، ولكن يمكن التماس العذر للباقلاني كونه تحمل مسؤولية مقارنة بين نص بشري في طبيعته القمم والسفوح والاختلاف، والتوفيق والتعثر، والقوة والضعف والتحليق والهبوط، الرفرفة والثقلة، الإشراق والانطفاء، والاختلاف المستمر، وغير هذه الخصائص التي تتجلى معها سمات البشر.

(١) المرجع نفسه، ص ٢٦٤- ٢٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٢.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٧١.

ويبدو ذلك واضحا عندما نستعرض أعمال الأديب الواحد ، أو المفكر الواحد، أو الفنان الواحد، أو السياسي الواحد أو أيٍّ كان في صناعته ؛ التي يبدو فيها الوسم البشري وهو "التغير و الاختلاف"[1]، وبين نص قرآني مقدس ما فتئ - بنفسه - يعتد بفصاحته أنى للباقلاني أو غيره أن يحيط به علمًا؟؟ نص كله إشراق، وقمم، وتوفيق، وقوة، وتحليق، ورفرفة بعيد بعيد عن النقص البشري المتأثر بالمشكلات الوقتية الجزئية، والجهل بما وراء اللحظة الراهنة.

كما لا يخفى الصراع الحاد –آنذاك- بين المذاهب العقائدية الذي برز عن طريق غزو الفلسفة اليونانية، ذلك الغزو الذي فتح ملفًا جديدًا للمناقشة والجدل هو قضية "الإعجاز في القرآن" لم يكن مطروحًا من ذي قبل ؛ إذ كانت "طريقة العرب في كلامها" نظرية عربية خالصة لم تترك لأيٍّ كان أن يشكك في إعجازية النص الخالد، حيث سجد فطاحل الشعراء، وأرباب البيان، أما روعة القرآن العظيم، ويدل على صحة ما نذهب إليه ظهور الإعجاز في بدايتها كقضية فلسفية مع النظام والغزو الفلسفي اليوناني.

لقد استطاع الباقلاني من خلال منهج الموازنة أن ينبه إلى التماسك النصي الذي يتميز به النص وكان التماسك القرآني في غاية من الدقة والسمو بلغ حدّ الإعجاز ؛ حيث يمكننا أن نعده وجها إعجازيًا مستقلاً بذاته، لقد تأمل الباقلاني في الشعر "ديوان العرب" فوجد ما يمكن أن يعيب به تلك النصوص - على مكانتها في الشعر العربي- من حيث التماسك بين أجزائها، ولكنه تأمل أيضًا في النظم القرآني ليراه سالمًا من كل العيوب و على رأسها انعدام التماسك بين وحدات النص " ثم انظر في آية آية، وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف؟؟ فكلُّ كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخوتها، وضامّتها ذواتها"[2].

وفي تطبيقاته النصية يبدأ الباقلاني باستقصاء السورة كاملة ؛ فقد حلّل تحليلاً كاملاً كلًا من سورتي فصلت وغافر ؛ يبدأ من الآية لينتقل للتي تليها مبيّنًا وجه التماسك بينهما وهكذا حتى يصل إلى الدرجة القصوى درجة النص ؛ متتبعًا أوجه الربط بين الآيات ؛ يقول –مثلاً- في تحليله لسورة فصلت: " فقال عز وجل: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ ﴾[3]، فلولا أنه جعل برهانًا لم يكن بشيرًا ولا نذيرًا، ولم يختلف بأن يكون عربيًا مفصلاً أو بخلاف

(١) المرجع نفسه، ص٢٣١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٩- ٦١.

(٣) سورة فصلت، آية ٠١- ٠٤.

ذلك، ثم أخبر عن جحودهم و قلة قبولهم بقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [1]، ولولا أنه حجة لم يضرَّهم الإعراض عنه و ليس لقائل أن يقول: قد يكون حجة و يحتاج في كونه حجة إلى دلالة على صدقه، وصحة نبوته؛ وذلك أنه إنما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل، ولم يذكر حجة غيره، ويُبَيّن ذلك أنه قال عقيب هذا: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]، فأخبر أنه مثلهم لولا الوحي، ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به والمصدقين له، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [3].

هذا الاحتجاج على الوحدانية و القدرة، إلى أن قال: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[4]؛ فتوعَدَهم بما أصاب مَنْ قبلَهم من المكذبين بآيات الله، من قوم عاد و ثمود في الدنيا.

ثم توعَّدَهم بأمر الآخرة، فقال: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [5] إلى انتهاء ما ذكره فيه.. ثم رجع إلى ذكر القرآن فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [6].

ثم أثنى بعد ذلك على مَنْ تلقاه بالقبول فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [7]، ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [8].

ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، إلى أن قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [9].

---

(١) سورة فصلت، آية ٠٤.
(٢) سورة فصلت، آية ٠٦.
(٣) سورة فصلت، آية ١٣.
(٤) سورة فصلت، آية ١٣.
(٥) سورة فصلت، آية ١٩.
(٦) سورة فصلت، آية ٢٦.
(٧) سورة فصلت، آية ٣٠.
(٨) سورة فصلت، آية ٣٦.
(٩) سورة فصلت، آية ٤١- ٤٢.

هذا وإن كان مُتَأَوِّلاً على أنه لا يوجد فيه غير الحق ممَّا يتضمنه من أقاصيص الأولين فلا يخرج عن أن يكون متأوِّلاً على ما يقتضيه نظام الخطاب، من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته، ثم قال ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [1]، فأخبر أنه لو كان أعجميًا لكانوا يحتجون في رَدِّه؛ إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم، و كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، وبأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه، لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم، أو بغير ذلك من الأمور، و إنّه تحدَّاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه و وجبت الحجة عليهم به، على ما نبينه في وجه هذا الفصل، إلى أن قال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [2].

وقد نبّه الباقلاني أن تحليله لسورتي فصلت وغافر ينسحب على القرآن كله "والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبّه على غيرهما"[3] ، وذلك من حيث التماسك الشديد بين أجزاء السورة، كما استقصى الباقلاني استقصاء تامًا قصيدتي امرىء القيس والبحتري، ليكون بكل ذلك من أوائل نقاد العرب القدماء الذين فتحوا للنقد العربي آفاقًا نحو عالم النص والنظرة الكلية الإستراتيجية البعيدة عن الجزئية والابتسار الذي أغرق النص في تخريجات لغوية للآية أو البيت أو الجملة لتتوارى معها دلالة النص المحورية التي لا تنوء الجملة أو الآية بحملها وحدها تلك الدلالة الموجودة في النص والنص وحده.

لقد أدرك الباقلاني ضرورة النظر إلى البناء الكلي الذي يجسده إبراز التماسك بين لبنات النص ، وطبّق نظرية النظم التي اختارها سبيلًا للوصول إلى منطقة الإعجاز، فكان التماسك من أبرز عناصر نظرية النظم ، يقوم بتجميع جزئيات النص في إطار كلي جامع.

وتلك فكرة أساسية يكون الباقلاني بوعيها تنظيرًا وتطبقًا ناقدًا أصيلاً من هذه الناحية، ممّا جعل بعض الدارسين يقول: "إن محاولة الباقلاني على ما فيها من هنات تُعَدّ فريدة من نوعها في الفترة التي ندرسها، إذ لم نعثر على ناقد تناول بالدرس قصيدة أو جزءًا منها، فطرافة الباقلاني تتمثل أولاً في تناوله بالبحث جزءًا كبيرًا من قصيدتين، وتتمثل أيضًا في تطرقه إلى مفهوم (البناء) أو (النظام) من ناحية إجرائية"[4].

---

(١) سورة فصلت، آية ٤٤.

(٢) سورة فصلت، آية ٥٢.

(٣) الباقلاني، المرجع السابق، ص٦١.

(٤) توفيق الزيدي، مفهوم الأدبية في التراث النقدي، ص١٦٢.